شرح أدب الكاتب

لأبي منصور موهوب بن أحمد الجواليقي

عن نسخة دار الكتب المصرية العامرة

وفي صدره مقدمة جليلة بقلم المتفضل بالنظر فيه
الاستاذ الامام معجزة الادب العربي

السيد مصطفى صادق الرافعي

عنيت بنشره

مكتبة القدسي

لصاحبها حسام الدين القدسي

بالقاهرة بالازهر بشارع رقعة القمح

سنة ١٣٥٠ للهجرة

(وحقوق الطبع محفوظة)

Coll. Jawaliki, Mauhub ibn Ahmad, al-,
893.7Ab32
O22

المقدمة (*)

بسم الله الرحمن الرحيم

UNIVERSITY LIBRARY

أدبُ الكاتب لابن قُتَيبة من الدواوين الاربعة التى قال ابن خلدون فيها من كلامه على حدّ علم الادب: « وسمعنا من شيوخنا فى مجالس التعليم أن أُصولَ هذا الفن وأركانه أربعةُ دواوين : وهى أدبُ الكاتب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرّد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابي علَى القالى البغدادى وما سوى هذه الاربعة فتبعٌ لها وفروع عنها » .

وقد يظن أدباء عصرنا أن كلمة ابن خلدون هذه كانت تصلح لزمنه وقومه وأنها تتوجّه على طريقة من قبلهم فى طَبَقَةٍ بعد طبقة الى أُصول هذه السلسلة التى يقولون فيها حدثنا فلان عن فلان الى الاصمعى أو أبى عُبيدة أو أبى عمرو بن العلاء وغيرهم من شيوخ الرواية ونَقَلَة اللغة ، ولكنها لا تستقيم فى آدابنا ولا تُعد من آلاتنا ولا تقع من معارفنا، بل يكاد يذهب من يتغرّرُ منهم بالآراءِ الاوربية التى

(*) رجونا الاديب الامام السيد مصطفى صادق الرافعى أن يتفضل بكلمة يقدم بها لهذا الشرح فبعث الينا بهذه الآية الفريدة ضمنها رأياً جديداً فى كتب الادب العربى القديمة لم يسبقه اليه أحد وسيجعل لهذه الكتب الشأن الاكبر و يعيد لها حياتها الاولى . فنحن نتحف عالم الادب العربى من هذا الكتاب بآثار ثلاثة من أئمته : ابن قتيبة والجواليقى والرافعى .

ولم يقتصر كرم الامام على هذه التحفة بل كنت عرضت كراسات الكتاب عليه لوضع المقدمة فتصفحها ونبهنا الى ما عثر عليه من الخطأ فأثبتناه فى منتهى الكتاب من النسخة التى نظر فيها شاكرين له . وقد تجاوزنا عن بعض ما يظهر للقارئ بأيسر النظر . وبقى فى الكتاب مواضع لم يتجه لنا صوابها وهى قليلة لا تعدو أربعة أو خمسة .

الناشر

36-9734

يسميها علمه... ومن يسترسل إلى التقليد الذي يسميه مذهبه... الى أن تلك الكتب وماجرى فى طريقتها هى أموات من الكتب وهى قبور من الأوراق ، وأنه يجب أنْ يكونَ بيننا وبينها من الاهمال أكثر مما بينها وبيننا من الزمن ، وأن بعث الكتاب منها وإحياءه يوشك أن يكونَ كبعثِ الموتى علامةً على خراب الدنيا..

فأما أن يكونَ ذلكَ علامةً على خراب الدنيا فهو صحيح إذا كانت الدنيا هى محرر جريدة... من أمثال أصحابنا هؤلاءِ ، وأما تلك الكتبُ فأنا أحسبها لم توضع إلا لزمننا هذا ولأدبائه وكتَّابِهِ خاصةً ، وكأن القدرَ هو أثبتَ ذلكَ القولَ فى مقدمة ابْن خلدون لينتهىَ بنصِّهِ إلينا فنستخرجَ منه ما يُقيمنا على الطريقة فى هذا العصر الذي وقعَ أدباؤه فى متَّسَعٍ طويلٍ منْ فنونِ الأدَب ومُضْطَربٍ عريضٍ منْ مذاهب الكتابةِ وأفُقٍ لاَ تستقرُّ حدودُه منَ العلوم والفلسفة.. فان هذه المادةَ الحافلةَ منَ المعانى تحيي آدابَ الأمم فى أوربا وأمريكا ولكنها تكاد تطمسُ آدابنا وتمحقنا محقاً تذهبُ فيه خصائصُنا ومقوِّماتنا وتحيلنا عن أوضاعنا التاريخية وتفسد عقولنا ونزعاتنا وترمى بنا مراميها بين كل أُمَّة وأمة حتى كأنْ ليست منَّا أُمةٌ فى حَيِّزها الانسانى المحدود من ناحيةٍ بالتاريخ ومنْ ناحية بالصفات ومن ناحية بالعلوم ومن ناحية بالآداب . ومنْ ذلك ابتُلِىَ أكثر كُتَّابنا بالانحراف عن الأدب العربى أو العصبيَّةِ عليهِ أو الزِّراية له ، ومنهم من تحسبه قدْ رُمِىَ فى عقلهِ لهوَسهِ وحماقتهِ ، ومنهمْ مَنْ كأنَّه فى حقْدهِ سلخ قلبُه ، ومنهم المقلد لا يدرى أعلى قصْدٍ هو أم جوْر ، ومنهُمْ الحائر يذهب فى مذهب ويجىء من مذهب ولا يتَّجه لقصد ، ومنهم من هو منهم وكفى...

وقلَّما تنَبَّه أحدٌ الى السبب فى هذا والسببُ فى حقارته وضعفه « كالمكروب » بذرةٌ طامسةٌ لا شأن لها ولكن متى تنبتْ تنبتْ أوجاعاً وآلاماً وموتاً وأحزاناً ومصائبَ شتَّى .

السببُ أن أولئك الادباءَ كُلَّهم ثم مَنْ يَتَشَيَّعُ لهم أو يأخُذُ برأيهم لَيسَ منهم واحدٌ تُرَى فى أساسه الادبى تلكَ الاصُولُ العَرَبيةُ المحضَةُ القائمَةُ على دراسة اللغة وجمعِها وتصنيفِها وبيانِ عِلَلِهَا وتصاريفِها ومَطَارح اللّسان فيها . والمُتأَدية بذلكَ الى تمكينِ الأَديب الناشىء من أسرارِ هذه اللغةِ وتَطويعها له فيكون قَيِّماً بها وتكُون هىَ مُسْتَجِيبَةً لقلمه جاريةً فى طَبيعَتِه مسدَدَةً فى تَصرُّفه . حتى اذا نَشأَ بها واستَحكَمَ فيها أحسنَ العملَ لها وزاد فى مادَّتِها وأخَذَ لَهَا من غيْرِها وكانَ خليقاً أنْ يَمُدَّ فيها ويحسِن الملاءَمةَ بينها وبين الآداب الاخرَى ويجْعَلَ ذلكَ نَسْجاً واحدا وبياناً بعضه من بعْضِهِ فينْمو الادَب العرَبى فى صَنِيعه كما تَنْمو الشَجَرَةُ الحيةُ تأْخذ من كل ما حولها لعنْصُرِها وطبيعتَها وليس إلا عنصرُها وطبيعتُها حَسْب .

إنَّ أدَبَ الْكَاتب وشَرحه هذا للامام الجَواليقى * وما صُنِّفَ مِنْ بابهما على طَرِيقَة الجمع منَ اللغَة والخبر وَشعْر الشواهد والاستِقصاءِ فى ذلك والتبَسُّطِ فى الوجوهِ والعِلَل النحوية والصَرْفية والامعانِ فى التَحْقِيق . كلُّ ذلكَ عمَل ينبَغى أن يعرفَ على حقه فى زَمَننا هذا فهُوَ لَيسَ أَدَباً كما يفْهم من المَعنى الفلسفى لِهذِهِ الكلمة بل هوَ أبعدُ الاشياءِ عن هذا المعنى فانكَ لا تجد فى كِتاب من هذهِ الكُتب الاَّ التأليفَ الذِى بينَ يديكَ ، أمَّا المؤلف فلاتجده ولا تعرفه منهَا إلا كالكلمَةِ المحبوسة فى قاعدَة . . وكأَنَّه لم يكُن فيه روحُ انسان بل روحُ مادَّة مُصْمَتَة وكَأَنه لم ينْشأْ ليعمَلَ فى عَصرِهِ بَلْ ليعمَلَ عصْرُهُ فيه وكأنْ ليس

(*) الجواليق جمع شاذ لجوالق وقد نسب هذا الامام الى عمل الجوالق وبيعها وهذا الجمع ليس بينه وبين واحده الا الحركة فالمفرد جوالق بضم الجيم والجمع بالفتح ومثله ألفاظ أحصوها كحلاحل وعدامل وخثارم وغيرها .

فى الكتاب جهةٌ انسانية مُتعيِّنةٌ فثمَّ تأليفٌ ولكن أينَ المؤلف، وهذا كتابُ ابن قُتَيْبَةَ ولكن أين ابنُ قتيبة فيه ؟

وما أخطأ المتقدمون فى تسميتهم هذهِ الكُتبَ أدباً فذلك هُو رَسمُ الادَبِ فى عَصْرِهم غير أنَّ هذا الرَسْم قدْ انتقَلَ فى عصرنا نحنُ فانَّا نحن المخطئُونَ اليوْم فى هذهِ التسمية كما لو ذهبنا نسمي الجمَلَ فى البادية الاكسبريس والهوْدَجَ عرَبة بولمان.

وَمنْ هذا الخطأ فى التَسْمِيَةِ ظَهَرَ الأَدَبُ العرَبي لقصار النظَر كأنَّه تكرار عصْر واحد على امتداد الزَمَن فان زاد المتأخر لم يأخذ الا من المتقدم وصارت هذه الكُتب كأنها فى جملتِها قانونٌ منْ قوانين الجنسية نافذٌ على الدهر لا ينبغي لعصر يأتى إلاأن يكون من جنس القرْن الاول.

هذهِ الكُتب منْ هذهِ الناحية كالخَلّ يسمَّى لكَ عسَلا ثمَّ تذوقه فلاَ يجنى عليه عندك الا الاسم الذى زوِّرَ له. أما هُو فكما هُو فى نَفسه وفى فائدته وفى طبيعتَه وفى الحاجة اليه لا ينقص منْ ذلكَ ولا يتغير.

الحَقيقَة التى يعينُها الوضعُ الصحيح أن تلكَ المؤلفاتِ إنما وُضعت لتكُون أدباً لا من معنى أدب الفكر وَفنِّه وجماله وفلسفته بلْ من معنى أدَب النَّفْس وتثقيفها وتربيتها وإقامتها فهى كُتب تربيةٍ لغوية قائمةٌ على أصولٍ محكَمةٍ فى هذا الباب حتى ما يقرؤها أعجمىٌّ الا خرج منها عربياً أو فى هوَى العربية والميلِ اليها. ومن أجل ذلك بُنيتْ على أوضاع تجعل القارىءَ المتبصر كأنَّما يصاحب منَ الكِتاب أعرابياً فصيحا يسأله فيجيبه ويستهديه فيرشده، ويُخرِّجُه الكتابُ تصفُّحاً وقراءةً كما تخرِّجُه البادية سماعاً وتلقينا، والقارىء فى كل ذلك مُسْتَدرَجٌ الى التعرُّب فى مَدْرجةٍ مدرجةٍ من هوَى النفْس ومحبتها فتصنع به تلك الفصولُ فيما دبِّرتْ لهُ مثلما تصنع كُتبُ التربية فى تكوين الخُلُق بالاساليب التى أُديرتْ عليها والشواهدِ التى وضعت لها والمعالم النفسية التى فصِّلت فيها.

ومن ثَمَّ جاءت هذه الكتبُ العربية كلها على نَسَق واحد لا يختلف فى الجملة فهى أخبار وأشعار ولغةٌ وعربية وجمعٌ وتحقيق وتمحيص، وإنما تتفاوت بالزيادة والنقص والاختصار والتبسُّط والتخفيف والتثقيل ونحو ذلك مما هو فى الموضوع لا فى الوضع حتى ليخيّلُ إليك أنَّ هذهِ كتب جغرافية للغة وألفاظها وأخبارها إذ كانت مثلَ كتب الجغرافية متطابقةً كلُّها على وصف طبيعةٍ ثابتة لا تتغير معالمها ولا يخلق غيرَها إلا الخالقُ سبحانه وتعالى.

وإذا تدبَّرتَ هذا الذى بينّاه لم تعجب كما يعجب المتطفلونَ على الأدب العربى والمتخبطون فيهِ من أن يَروا إيمانَ المؤلفين متصلاً بكتبهم ظاهرَ الأثر فيها وأنهم جميعاً يقررونَ أنما يريدون بها المنزلةَ عند الله فى العمل لحياطة هذا اللسان الذى نزل بهِ القرآن الكريم وتأديتهِ فى هذهِ الكتب إلى قومهم كما تُؤدّى الأمانةُ إلى أهلها حتى لولاَ القرآن لما وضع من ذلك شىء البتة.

وأنا ألمَحُ دائماً العاملَ الالهىَّ فى كل أطوار هذه اللغة وأراهُ يُديرها على حفظ القرآن الذى هو معجزتها الكبرى وأرى من أثره مجىءَ تلكَ الكتب على ذلك الوضع وتسخيرَ تلك العقول الواسعة من الرواة والعلماءِ والحفاظ جيلا بعد جيل فى الجمع والشرح والتعليق بغير ابتكار ولاَ وضع ولاَ فلسفة ولاَ زَيْغ عن تلك الحدُود المَرسومة التي أومأَنا إلى حكمتها. فلو أنهُ كانَ فيهم مجدٌ دونَ من طراز أصحابنا من أهل التخليط ثم تُرِكَ لهم هذا الشأنُ يتولّونهُ كما نرى بالنظر القصير والرأى المعاندِ والهوى المنْحرف والكبرياءِ المصمَّمَةِ والقولِ على الهاجس والعلم على التوهُّم ِ ومجادلةِ الاستاذ حَيْصَ للأُستاذ بَيْص .... إذَنْ لضرَبَ بعضهم وجهَ بعض وجاءت كتبهم متدابرة ومُسِخ التاريخ وضاعت العربية وفسد ذلك الشأن كلهُ فلم يتسق منهُ شىء.

ومما تردّه على قارئها تلك الكتبُ فى تربيته للعربية أنها تُمكّنُ فيه للصبرْ والمعاناة والتحقيق والتورُّكِ فى البحث والتدْقيق فى التصفُّح وهى الصفاتُ التى فقدها أُدباء هذا الزمن فأصبحوا لا يتثبّتونَ ولا يُحققونَ وطالَ عليهم أنْ ينظرُوا فى العربيـة وثقل عليهم أنْ يستبطنوا كتبها ، ولو قدْ تربَّوا فى تلك الأسفار وبذلك الأُسلوب العربى لتمّت الملاءمة بين اللغة فى قوتهـا وجزالتها وبين ماعسى أن ينكره منها ذوقُهم فى ضعفه وعاميته وكانُوا أحقّ بها وأهلها .

وذلك بعينه هو السرّ فى أن من لا يقرؤنَ تلك الكتب أوّلَ نشأتهم لا تراهم يكتبونَ إلا بأُسلوبٍ منحطّ ولا يجيئونَ إلا بكلامٍ سقيمٍ غثٍّ ولا يرون فى الأدب العربى إلا آراءً ملتويةً ، ثم هم لا يستطيعون أن يقيموا على درس كتاب عربي فيُساهلونَ أنفسهم ويحكمونَ على اللغة والادب بما يشعرونَ به فى حالتهم تلك ويتورّطونَ فى أقوال مضحكة وينسون أنه لا يجوز القطعُ على الشىء من ناحية الشعور مادام الشعور يختلف فى الناس باختلاف أسبابه وعوارضه ، ولا من ناحيةٍ يجوز أنْ يكون الخطأ فيها وهم أبداً فى إحدى الناحيتين أوفى كلتيهما .

***

وهذا شرح الجواليقى من أمتع الكتب التى أشرنا اليها وصاحبه هو الامام ابو منصور موهوب الجواليقى المولود فى سنة ٤٦٥ للهجرة والمتوفى سنة ٥٤٠ وهو من تلاميذ الامام الشيخ أبى زكريا الخطيب التبريزى أول من درس الادب فى المدرسة النظامية ببغداد (١) . وقرأ الجواليقى على شيخه هذا سبع عشرة

(١) أنشأها نظام الملك وزير ملك شاه السلجوقى المتوفى سنة ٤٨٥

سنة استوفى فيها علوم الادب من اللغة والشعر والخبر والعربية بفنونها ثم خلف شيخه على تدريس الادب فى النظامية بعد على بن أبى زيد المعروف بالفصيحى (١)

ومانشك أن هذا الشرح هو بعض دروسه فى تلك المدرسة فأنت من هذا الكتاب كأنك بازاء كرسى التدريس فى ذلك العهد تسمع من رجل انتهت إليه إمامةُ اللغة في عصره فهو مدقق محيط مبالغ فى الاستقصاء لا يَندُّعنه شىء مما هو بسبيله من الشرح، معنىٌّ بالتصريف ووجوهه مما انتهى إليه من أثر الامام ابن جنى فيلسوف هذا العلم في تاريخ الادب العربي فان بين الجواليقى و بينه شيخين كما تعرف من اسناده فى هذا الشرح .

وقد قالوا إن أبا منصور فى اللغة أمثلُ منه فى النحو على إمامتِه فيهما معا إذ كان يذهب فى بعض علل النحو إلى آراء شاذة ينفرد بها وقد ساق منها عبد الرحمن الانبارى مثلين فى كتابه نزهة الالباء ولكن هذا الشذوذ نفسه دليل على استقلال الفكر وسعته ومحاولته أن يكون فى الطبقة العليا من أئمة العربية . وهو على ذلك رجل ثقة صدوق كثير الضبط عجيب فى التحرى والتدقيق حتى كان من أثر ذلك فى طباعه أن اعتاد التفكير وطولَ الصمت فلا يقول قولاً الا بعد تدبُّر وفكر طويل فان لم يهتد إلى شىء قال لاأدرى وكثيراً ما كان يُسأل فى المسئلة فلا يجيب الا بعد أيام .

وكان وَرِعاقوىّ الايمان انتهى به إيمانُه وعلمه وتقواه الى أن صار استاذ الخليفة المقتفى لامر الله فاختص بامامته فى الصلوات وقرأ عليه المقتفى شيئاًمن الكتب وانتفع بذلك وبان أثره فى توقيعاته كما قالوا .

والذى يتأمل هذا الشرح فضلَ تأمُّل يرى صاحبه كأنما خلقه الله رجل إحصاء

---

(١) لقب بذلك لكثرة اعادته كتاب الفصيح في اللغة .

فى اللغة لا يفوته شىء مما عرف إلى زمنه وهو ولا ريب يجرى فى الطريقة الفكرية التى نهجها ابن جنى وشيخه أبو على الفارسى ومن أثر هذه الطريقة فيه أنه لا يتحجر ولا يمنع القياسَ فى اللغة ويُلحق ما وضعه المتأخرون بما سُمع من العرب ويروى ذلك جميعه ويحفظه ويلقيه على طلبته . ومن أمتع ما جاء من ذلك فى شرحه قوله فى صفحة ٢٣٥ وهو باب لم يستوفه غيره ولا تجده الا فى كتابه وهذه عبارته:

قولُهم يدى من ذلك فَعِلة ، المسموعُ منهم فى ذلك ألفاظ قليلة وقد قاس قوم من أهل اللغة على ذلك فقالوا يدى من الإهالة سَنِخَة ، ومن البيض زَهِمَة ومن التراب تَرِبَة ومن التين والعنب والفواكه كَتِنَة ، وكمدة ولَزِجَة ومن العشب كَتِنة أيضا ومن الُجبن نَسِمَة ، ومن الجصّ شَهِرَة ، ومن الحديد والشَّبه والصُّفْر والرصاص سَهِكَة وصَدِئَةُ أيضاً ، ومن الحمأة رَدِغَة ورَزِغة ، ومن الخضاب رَدِعَة ، ومن الحنطة والعجين والخبز نَسِغَة ، ومن الخل والنبيذ خَمِطَة ، ومن الدبس والعسل دَبِقَة ولَزِقَة أيضاً ، ومن الدم شَحِطة وشَرِقَة ، ومن الدهن زَنِخَة ، ومن الرياحين ذَكِية ، ومن الزهر زَهِرَة ، ومن الزيتِ قَنِمَة ، ومن السمكِ سَهِكَة وصَمِرَة ومن السمن دَسِمَة ونَسِمَة ونَمِسَة ، ومن الشهد والطين لَثِقَة ، ومن العِطْر عَطِرَة ، ومن الغالية عَبِقَة ، ومن الغسْلة والقِدر وحِرَة ، ومن الفرصاد قَنِئَة ومن اللبن وَضِرَة ، ومن اللحم والمرق غَمِرَة ، ومن الماءِ بَلِلَة وسَبِرَة ، ومن المِسْك ذَفِرَة وعَبِقة ، ومن النَّتن قَنِمَة ، ومن النفطِ جَعِدَة انتهى .

فالمسموع منْ هذه الألفاظ عن العرب لا يتجاوز سبعاً فيما نرى والباقى كُله أجراه علماء اللغةِ وأهل الأدب على القيَاس فأبْدع القياسُ منها أربعاً وثلاثين كلمة . ولو تدبرتَ كيفية استخراجها ورجعت إلى الأصول التى أخذت منها لأيقنت أن هذهِ العربية هى أوْسع اللغَات كافة وأنها منْ أهلها كالنبُوَّة

الخالدة في دينها القوى تنتظر كلَّ جيل يأتي كما ودَّعت كلَّ جيلٍ غَبَرَ لأنها الإنسانية لهؤلاءِ وهؤلاءِ.

إن ظهور مثل هذا الشرح كالتوبيخ لأكثر كتاب هذا الزمن أن اقرؤا وادرسُوا وخصوا لغتكم بشطْر من عنايتكم وترَبَّوا لها بتربيتها في مدارسكم ومعاهدكمْ واصبرُوا على معاناتها صبر المحب على حبيبته ، فان ضعفتم فَصبرَ البارّ على من يلزمهُ حقّهُ ، فإن ضَعفتم عنْ هذا فَصبرَ المتكلفِ المتجمّل على الأقل ...

مصطفى صادق الرافعي